

بين الأدب والنقد والسياسة : قراءة في كتابات إدوارد سعيد

كريم بجيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك

لم يرد علينا اسم المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد في الأوساط الأكاديمية والإعلامية العربية إلا نادرا. فلزمنة الباحثين في علاقة الغرب بالإسلام والعرب يتداعى مؤلف "الاستشراق" كأحد أحدث الصيحات في الجدال القديم الجديد حول الصراع الثقافي بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي مع ما يتضمنه كل ذلك عادة من الاختزال والتبسيط. وبالنسبة للإعلاميين فإن إدوارد سعيد يمثل صوتا معارضا قويا لمجموع الاتفاقات التي أبرمتها السلطة الفلسطينية مع إسرائيل بداية من مؤتمر السلام بمديرد وما تلاها بعد ذلك في أوسلو وكامب دايفيد ووأي ريفر وغيرها من المحطات. والحقيقة أنه رغم أهمية هذين الملمحين من حياة وفكر سعيد وحساسيتهما بالنسبة للمتابع العربي إلا أنهما لا يعكسان سوى واجهة من الواجهات المتعددة من اهتمامات وانشغالات المفكر والناقد إدوارد سعيد. هناك مجالات أخرى أسهم فيها سعيد إسهاما بالغا من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته وحواراته، وتتمثل في النقد والنظرية الأدبية والفلسفة والموسيقى. وهو بهذه الروح المشبعة بالمعارف والفنون والمنفتحة على الثقافات المتنوعة والمنحازة إلى صف القيم الإنسانية المتجردة

عن الخطابات الإيديولوجية والتصنيفات العرقية يمثل نموذجاً راقياً ونادراً للمثقف والإنسان الملتزم.

إن انحسار هذه الملامح القوية من فكر إدوارد سعيد في ذهنية الملتقي العربي مرتبط ليس فقط بعدم توفر ترجمات للنصوص الأصلية التي ألفها بالإنجليزية، ولكن بغياب تقاليد راسخة من العمل الأكاديمي الدؤوب والمؤطر داخل الجامعة وخارجها، وأيضاً بانتفاء الوعي بقيمة هذا العمل في تطوير المجتمع وتمكين أجيال من الشباب العربي من فهم أكثر عمقا وتسامحا للاختلافات الثقافية التي تميز المنطقة العربية عن غيرها. ولعل هذا القصور في فهم مرامي الاتجاه الفكري الذي يمثله سعيد من خلال مؤلفاته العديدة والمتنوعة كثيراً ما سبب له إحساساً بالامتناع والغبن. ففي ملحق صدر ضمن طبعة "الاستشراق" لسنة 1995 صرح سعيد قائلاً:

أعتقد أن الفرق بين الرد العربي والردود الأخرى على "الاستشراق" هو إشارة إلى الكيفية التي أثرت بها عقود من الضياع والإحباط وغياب الديمقراطية في الحياة الفكرية والثقافية في المنطقة العربية. لقد قصدت أن يكون كتابي جزءاً من تيار معرفي قائم من ذي قبل هدفه تحرير المثقفين من قيود أنظمة كالاستشراق. أردت أن يستفيد القراء من كتابي كي يستطيعوا فيما بعد إنتاج دراساتهم الجديدة حتى تنير التجربة التاريخية للعرب وللآخرين بشكل سخي ومحفز. لقد حدث ذلك بالتأكيد في أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا وشبه القارة الهندية والكاريبين وأيرلندا وأمريكا اللاتينية وفي أجزاء من إفريقيا... لكن ذلك لا يبدو قد حدث حسبما أستطيع أن أقدر في العالم العربي حيث تحلل مؤلفات مثل كتابي بطريقة أقل إفادة بالمعنى المثمر، وبشكل أكثر كحركات دفاعية إما من أجل الغرب أو ضداً عليه⁽¹⁾.

1. راجع كتاب سعيد، "الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء"، ترجمة كمال أيوب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1984.

وإذا كان هناك من شيء ثابت يميز مسيرة سعيد الفكرية فإنها قدرته الفائقة على اختراق الحدود الضيقة للمجالات المعرفية والتصنيفات الأكاديمية والمناهج التحليلية والمصطلحات الحديثة المركبة التي تدرس في الجامعات. فبحكم تكوينه الأكاديمي الصرف في جامعتي برنستون وهارفرد العريقتين خلال الخمسينيات من القرن الماضي، فإن سعيد ينتمي لجيل من الدارسين المحافظين نسبيًا الذين نهلوا من الآداب اللاتينية والأوروبية الكلاسيكية ومن الفلسفة والتاريخ الأوروبي الحديث. وفي مجال النقد، فإن سعيد ظل وفيًا للمدرسة الفكرية الإنسية (Humanism) والتي تمثلها أعمال سبيتز (Leo Spitzer) وأورباخ (Erich Auerbach) وكورتيس (Ernest Robert Curtius) والمؤسسة على روح الانفتاح والتعاطف والفهم العميق للنص الأدبي وللقيمة الإنسانية فيه سواء كان هذا النص معاصرًا أو كلاسيكيًا ينتمي إلى حقبة قديمة أو ثقافة مختلفة.

غير أن تفاصيل التكوين الأكاديمي هذه لا تمثل إلا جانبًا من الحالة الوجدانية والفكرية المعقدة عند سعيد. إذ أن تجربته الحياتية وانتماءاته الفلسفية والعربية شكلا بداية من حرب 1967 حافزًا لمسألة الأفكار والأنساق والممارسات الغربية في مجال الثقافة والسياسة. وهذه المزاوجة بين الإحساس بالغربة والانتماء لثقافة مهمشة وشعب مضطهد وبين المعرفة العميقة والوعي النقدي للتراث الفكري الأوروبي بقدر ما منحت سعيد رؤية فريدة وأصيلة للقضايا التي يتناولها في أعماله، بقدر ما جلبت عليه الكثير من المؤاخذات والنقد اللاذع من أطراف مختلفة⁽²⁾.

من الإشارات المبكرة لهذا التزاوج بين المرجعية الفكرية والبعد الذاتي اهتمام سعيد بالروائي البريطاني (البولوني الأصل والمنشأ) جوزيف كونراد (Joseph Conrad) الذي شكلت قصته القصيرة موضوع أطروحة الدكتوراه التي قدمها بهارفرد وقام بنشرها بعد ذلك⁽³⁾. ولكونراد موقع مركزي في كتابات سعيد النقدية أفرد له باستمرار حيزًا هامًا يتحدث فيه عن الفضائل الاستعمارية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وعن التلاقي الذي يحدث

2. راجع مقالته "الاستشراق مرة أخرى" المنشورة في هذا العدد.

3. Edward Said, *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography*. Cambridge, Mass.: Harvard UP, 1966.

بين الثقافات والذهنيات تحكمها علاقات السلطة والصراع والإقصاء المتبادل ما يجعل لحظة الكشف في رواياته لحظة غامضة مؤثرة تبعث على السؤال والحيرة أكثر مما تثير الارتياح. هذا الغموض وهذه الازدواجية اللذان يطبعان الفضاء السردي عند كونراد والنابعان من تعدد مرجعيته الثقافية وتجاربه الشخصية كبحار جاب المحيطات شرقاً وغرباً أوجدا عند سعيد إحساساً بالانتماء والانجذاب أكثر مما أوجدته روايات هنري جيمس (Henry James) أو ديفيد هربرت لورنس (D H Lawrence) أو حتى جيمس جويس (James Joyce) والتي كان لها صيت قوي خلال فترة الخمسينات. وينطبق هذا القول أيضاً على قراءات سعيد النقدية والفلسفية. ففي الصفحات الأخيرة لمؤلف "خارج المكان" يصرح أن أهم الدراسات التي أثرت فيه خلال تكوينه الأكاديمي كانت من اكتشافه الخاص وتضمنت مؤلف فيكو "العلم الجديد"، ومؤلف جورج لوكاش (Georg Lukacs) "التاريخ والوعي الطبقي" فضلاً عن كتابات سارتر (Sartre) وهايدغر (Heidegger) وميرلوبونتي (Merleau-Ponty).⁽⁴⁾

وقد تطور هذا الانفتاح القوي لدى سعيد على الفكر والنقد الأوروبي الحديث منذ التحاقه بجامعة كولومبيا بنيويورك. فبفضل ملكاته اللغوية وقراءاته العديدة تحول اهتمام سعيد شيئاً فشيئاً نحو النقد الفرنسي الحديث والذي بدأ تأثيره يصل تدريجياً إلى الجامعات الأمريكية ليؤجج الجدل الدائر بين النقاد الجدد والمحافظين حول ماهية النص وطبيعة القراءة ودور المحيط في عمليتي الفهم والتحليل.⁽⁵⁾

وهكذا غدا سعيد المغترب من الآداب الأوروبية الكلاسيكية والحديثة أحد أهم الأصوات النقدية في الجامعة الأمريكية خلال أواخر الستينات وبداية السبعينات؛ إذ أسهم في تقديم أعمال رولان بارث (Roland Barthes) ولوسيان غولدمان (Lucien Goldman) وميشيل فوكو (Michel Foucault) وجاك دريدا (Jack Derrida) لجيل من الأكاديميين

4. Edward Said, *Out of Place: A Memoir* (London: Granata Books, 1999), p.290.

5. هناك دراسات عديدة عالجت طبيعة هذه الجدالات في عقد الخمسينات والستينات لم يترجم منها إلا القليل ولعل أهم المراجع المتوفرة للقارئ العربي دراسة روني ويليك وأوستن وارن "نظرية الأدب" التي صدرت 1949. ومن أهم الدراسات التحليلية التي تناولت إسهامات النقاد الجدد في أمريكا كتاب فرانك لنتريشيا Frank Lentricchia, *After the New Criticism* (London, Mehuen, 1980).

والطلاب وذلك عبر تقييم نقدي يجمع بين الوصف الدقيق والتعليق الذكي للحدود التي يقدمها كل نموذج من النماذج الفكرية. وتبقى كتابات فوكو أحد أقوى التأثيرات الفكرية التي طبعت مسار سعيد وقدمت له المنهج النقدي الذي يوفق بين التحليل اللغوي والبلاغي وبين الرؤية الشاملة للأبعاد التاريخية والثقافية والسياسية وهو المنهج الذي حاول استثماره مع قدر كبير من التصرف في دراسته للاستشراق.

غير أن هذا التطور اللافت في تكوين سعيد الفكري تزامن مع تطور آخر له ارتباط بانتمائته الفلسطيني والعربي وتمثل في نكبة 1967 وتزايد التصورات السلبية حول العرب والفلسطينيين في الولايات المتحدة مع ما واكب ذلك من تمجيد لإسرائيل وللنموذج 'الديموقراطي' الذي تمثله في المنطقة. وبالنسبة لسعيد فقد شكل هذا التهميش والتحقير للعرب في الإعلام الغربي استفزازاً جند له طاقاته الفكرية فبدأ في نشر المقالات حول التجربة والكفاح الفلسطيني وحول الاضطهاد الإسرائيلي⁽⁶⁾.

وهكذا يمكن للمتبع لمسار سعيد الفكري أن يلاحظ نوعاً من الازدواجية بين الاهتمام الأكاديمي وبين المواقف السياسية. وقد استمرت حالة الانفصام الفكري هذه إلى أن جاء مؤلف "الاستشراق" الذي أتاح لسعيد أن يمزج بين تصوراته النقدية وبين آراءه السياسية. قبل "الاستشراق" نشر سعيد مؤلف "بدايات" الذي لم يحصل إلى الآن على الاهتمام والتقييم اللذان يستحقهما خصوصاً وأنه المؤلف الذي وطد مكانته النقدية⁽⁷⁾.

كتاب "بدايات" يقدم تحليلاً فلسفياً وثقافياً لمفهوم الأصل أو المنشأ (origin) كقيمة دينية مقدسة ومفهوم البداية (beginning) باعتباره اختياراً مقصوداً يعبر عن إرادة معينة لتحقيق غاية معينة. ومعنى هذا التصنيف هو أن النصوص الحديثة (modernist) التي أنتجها كتاب من مثل جيمس جويس (James Joyce) وبيتس (W B Yeats) وكونراد (Conrad) وتوماس مان (Thomas Mann) وبروست (Marcel Proust) واليوت (T S Eliot) وكافكا (Franz Kafka) هي في المقام الأول تمثل لحظة بداية لجيل من الكتابات اللاحقة التي سارت

6. راجع على سبيل المثال الحوار الذي أجراه مع مجلة *Diacritics* (Fall 1976).

7. راجع : Edward Said, *Beginnings: Intention and Method*. New York: Basic Books, 1975.

على منوالها واستلهمت خصائصها؛ وفي المقام الثاني فإن هذه النصوص الحدائية وهي تؤسس للحظة البداية بنوع من الإرادة الواعية لابد أنها دخلت في أنواع من الصراع مع نصوص قديمة كلاسيكية مثل إلياذة هوميروس والإنجيل، وأحدثت من خلال هذا الصراع نوعا من القطيعة الفكرية. ومن جهة أخرى يتحدث سعيد عن الترابط والتشابك الذي يحصل بين عناصر مختلفة ومتعددة لتكوين لحظة البداية هذه. إذ أن ما يحفز البداية هو نوع من الاستلهم الذي يحدث ليس فقط من نصوص كلاسيكية بل من ظروف معينة سياسية وثقافية ومن مصادفات وأحاسيس عابرة يكون لها أثر مباشر في تشكيل البداية، وهو ما يصطلح عليه سعيد بمفهوم الترابط (affiliation) على خلاف مفهوم التوارث (filiation). وبالارتباط مع مفهومي الأصل والبداية يقدم سعيد تعريفا فلسفيا لمفهوم المؤلف باعتباره رديفا لمصطلحات المالك والأب والخالق وصاحب السلطة، وكيف أن النصوص تترايط فيما بينها من خلال تداخل هذه الأبعاد التي يأخذها المؤلف وبالتالي النص نفسه.

غير أن سعيد حول تدريجيا اهتمامه نحو جنس معين وهو الرواية ليستثمر من خلال تحليله النظري فكرة مفادها أن الرواية هي التعبير الأكثر انسجاما مع ظاهرة الحدائة، إذ أن الجنس الروائي يسمح أكثر من غيره من الأجناس الأدبية بالتجديد والتغيير والاختلاف؛ وهذه الممارسات الإبداعية المتجددة تعكس الرغبة المستمرة في مقاومة السلطة التي يكتسبها النص الروائي بمرور الزمن كما تسمح بإمكانية تحميل الرواية معاني ورموز وخصائص بلاغية غير متعارف عليها.

ويتجلى من خلال هذا التقديم المقتضب لبعض الأفكار التي يعالجها مؤلف "بدايات" تعايطي سعيد مع النقاشات والمجدالات القائمة آنذاك في أوروبا و في فرنسا بالتحديد. ويمكن أن يستشف من مفهومه للبداية تأثير فوكو القوي خصوصا ما جاء في مؤلف "أركيولوجية المعرفة" من تعريف للخطاب وللنسق وللتشكيلات الاستطراذية (discursive formations)⁽⁸⁾. كما يتبين من خلال قراءة "بدايات" قدرة سعيد على نسج تحليل نقدي يجمع بين التصورات البنيوية حول النص والمؤلف كما عند رولان بارت (من

8. راجع: Michel Foucault, *The Archaeology of Knowledge and the Discourse on Language* (trans. A M Sheridan Smith (New York: Pantheon Books, 1972).

أن النص مفتوح على قراءات متعددة وأن متعة النص تكمن في غياب معنى مركزي يمنحه الكاتب نفسه⁽⁹⁾ وبين القراءة التاريخية الإنسانية كما يمثلها فيكو (G B Vico) ومعناها أن لا شيء مقدس وأن التاريخ بما يزخر به هو من صنع الإنسان وأن تقديس قوى غير الروح الخلاقة الإنسانية هو انتقاص من حرية وتطلعات الإنسان.

بعد ثلاث سنوات من صدور "بدايات"، نشر سعيد مؤلف "الاستشراق" الذي كرس اهتمامه المتزايد بمنطقة الشرق الأوسط وبالجدل القوي في الإعلام وفي المنابر السياسية حول الصراع العربي الإسرائيلي وقضية الفلسطينيين داخل المخيمات وأحقية إسرائيل في العيش بسلام داخل حدود آمنة. لكن مضمون "الاستشراق" على خلاف مؤلفات أخرى لاحقة مثل "المسألة الفلسطينية" أو "لوم الضحايا" كان مضمونا فكريا مؤسسا على تحليل أكاديمي نقدي لعدد كبير من المفاهيم والمصطلحات حول تخلف الشرقيين ورومانسية الفضاء الشرقي وسحر وروحانية الثقافات الشرقية في مقابل قوة وحدثاثة وأفضلية الثقافة الغربية المرتكزة على العلم والعقلانية⁽¹⁰⁾. لاشك أن الإقبال على هذا المشروع الكبير شكل طفرة ليس في مسار سعيد الفكري بل في طبيعة المناهج والبرامج الدراسية في مجال الأدب في الجامعات الأوروبية والأمريكية كما ستم الإشارة إلى ذلك فيما بعد. "الاستشراق" لا يستمد قيمته من طبيعة التحليل النقدي والأفكار والمفاهيم التي يقدمها فحسب بل أيضا من الجدل الكثير والغني الذي تلي صدور الكتاب وتساعد تدريجيا حتى أحدث القطيعة بين فترة ما بعد "الاستشراق" وقبلها.

هناك طبعاً ظروف عديدة ساهمت في إعطاء مؤلف "الاستشراق" وللجدل المرتبط به ذلك الزخم والإلحاحية أهمها الآثار السياسية والنفسية لحرب 1973 وللمفاوضات بين مصر وإسرائيل. وفي المجال الأكاديمي الصرف فإن تعاطي سعيد مع تقليد راسخ ومؤسسة عريقة مثل الاستشراق بذلك الاندفاع والصرامة التي يعكسها الكتاب اعتبر من طرف العديد

9. راجع على سبيل المثال: Roland Barthes. *Le Degré zéro de l'écriture*. Paris: Seuil, 1972 ;

(The Pleasure of the Text Trans. Richard Miller (New York: Hill & Wang, 1975).

10. راجع: *The Question of Palestine* (New York: Times Books, 1979); *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question* eds. Edward Said and Christopher Hitchens (London: Verso, 1988). HYPERLINK "http://en.wikipedia.org/wiki/Christopher_Hitchens" \o

""Christopher Hitchens

من النقاد نوعاً من الخيانة أو من الانقلاب الفكري خصوصاً من شخص أكاديمي مرموق مثل سعيد نهل من المعارف الغربية واستفاد من الامتيازات التي حولها إياه النظام التعليمي الأمريكي. وقد تنوعت هذه الردود حسب المجالات الفكرية والتخصصات الأكاديمية وكان أكثرها الصادرة عن مستشرقين مثلاً برنارد لويس (Bernard Lewis) وليونارد بايندر (Leonard Binder) ومارتن كرامر⁽¹¹⁾ (Martin Krammer) الذين نفوا له أي أهلية للحديث عن الاستشراق نظراً لتكوينه الأكاديمي في مجال الأدب والنقد واهتمامه بعدم الدراية وبالتعميم المخل والتغاضي عن التمييز بين النصوص والمراحل التاريخية والمرجعيات الثقافية لكل من اهتم بالشرق. وهناك نقاد كثيرون من مجالات الأنثروبولوجيا (طلال الأسد، جيمس كليفورد (James Clifford) النقد الأدبي (ديفيد لودج (David Lodge) الدراسات النسوية (ليزا لو (Lisa Lowe، سارا ميلز (Sara Mills) وهم على تعداد اختصاصهم يرون أن سعيد أخفق في الإتيان بمنهج تحليلي يتوافق مع ظاهرة الاستشراق. إذ أن استهلاك مفهوم الخطاب (أو الإنشاء كما ترجمه كمال أبو ديب) من كتابات ميشيل فوكو لا يتناسب والتركيبة الذي يضعه سعيد على عنصري النية والقصد في كتابات المستشرقين. وفي رأيهم لا يمكن الجمع بين تحليل نقدي يقوم على استنباط النية عند الكاتب وبين مفاهيم تتجاوز الكاتب كفرد وتتشكل بفعل الاستمرار والتفاعل والتشابك مع نصوص وأفكار أخرى. كما أنهم يجدون تصوير سعيد لظاهرة الاستشراق على أنها سلسلة من التمثيلات القائمة على إرادة السيطرة وعلى الإسقاطات المسبقة للترغبات الذاتية وللأحكام المجازة المتحاملة أمراً متناقضاً مع طبيعة الاختلاف والتعدد وحتى التناقض التي يمثلها الاستشراق. ثم كيف أمكن لظاهرة الاستشراق أن تتفاعل مع المخططات الاستعمارية الأوروبية وتكرس إرادتها التوسعية وهي حسب سعيد تقليد من المعرفة السلبية حول الشرق لا يستطيع أن ينفذ إلى عمق وخصوصية الشرق⁽¹²⁾.

11. راجع:

Martin Krammer, *Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America* (The Washington Institute for Near East Policy, 2001); Leonard Binder, *Islamic Liberalism: A Critique of Development Ideologies* (Chicago: University of Chicago Press, 1998).

12. راجع في هذا الصدد مقالة كريم بجيت "العرب وأشكال التمثيل: قراءة في مؤلف "الاستشراق" لإدوارد سعيد"، *المنعطف*، العدد 13 (1997)، ص 7-21.

ويضاف إلى هذه التحفظات أصوات أخرى من نقاد ينتمون إلى تيار 'ما بعد الاستعمار' (postcolonialism) أمثال هومي بهابها (Homi Bhabha)، روبرت يانغ (Robert Young)، دينيس بورتر (Denis Porter)، علي بهداد (Ali Behdad)، وعيجاز أحمد (Aijaz Ahmad) الذين يتساءلون كيف يمكن للمستعمر المغلوب على أمره كما صوره سعيد أن يتخلص من خطاب استبدادي عنصري وإقصائي مثل الاستشراق. ففي ظل هذه الصورة القائمة فإن قدر الشعوب المستعمرة أن تبقى رازحة مستسلمة لهذه الإرادة المتجبرة وهذا يناقض موقف سعيد الداعي إلى إعمال حس نقدي وإلى مقاومة كل أشكال الاضطهاد الفكري والمادي. ويخلص هؤلاء النقاد إلى أن هناك خلل في فهم سعيد وتمثله للاستشراق. ويمكن الخلل في رأيهم هو أن سعيد يتجاهل أو ينسى أن عملية الكتابة حول الشرق عملية مركبة تكتنفها لحظات من الشك والتردد والرغبة والانقطاع والتناقض والازدواجية (ambivalence)، كما أن مفهوم الطبيعة الخالصة للشرق في مقابل الطبيعة الخالصة للغرب مفهوم غير دقيق ويُغيب عنصر التعدد والاختلاط (hybridity). وهكذا فإن منهج سعيد الذي يعتمد على رؤية شاملة للاستشراق يعكسها مفهوم الخطاب الذي يستوعب كل النصوص والتصورات والمواقف الاستشراقية منهج تعميمي يسقط على النصوص نوعاً من التراص والوحدة والتناغم الكلي (monolithic construct) بينما الأجدر أن يتم التعامل مع النصوص كل على حدة لأن لكل نص طبيعة لغوية ودلالية وبعد ثقافي خاص وفريد.

ومن الجانب العربي لم يحظ الاستشراق بكثير من النقد والمتابعة. وحتى القراءات النقدية التي قدمها بعض الأكاديميين العرب في الجامعات البريطانية والأمريكية التقت في محتواها العام مع بعض التصورات النقدية الغربية التي أشرت إليها آنفاً ولعل أبرزها دراسة صادق جلال العظم "الاستشراق والاستشراق المعاكس" التي تميزت بالتحليل العميق والرزين. وهناك أيضاً دراسة لمهدي عامل حول كيفية تعامل سعيد مع كارل ماركس تستحق بعض التنويه⁽¹³⁾. يرى عامل أن حكم سعيد على ماركس بأنه جزءاً من منظومة فكرية غربية متواطئة مع الإمبريالية حكماً جاثراً يجانب الصواب لأن ماركس هو أكثر المفكرين الأوروبيين مناهضة للثقافة البرجوازية وللإقتصاد الرأسمالي والإيديولوجية

13. مهدي عامل، "ماركس في استشراق إدوارد سعيد"، بيروت، دار الفارابي، 1985.

الإمبريالية. ورغم أن سعيد يشير إلى هذه المرجعيات في كتابات ماركس ويشيد بحسه الإنساني المعادي للاستغلال الطبقي، إلا أنه يرى في تصور ماركس للاستعمار البريطاني للهند وللشرق عموماً (باعتباره مرحلة ضرورية لاكتمال قيام ثورة البروليتاريا بعد تغيير النظام الإقطاعي إلى النظام الصناعي الأكثر استبداداً) تصوراً سلبياً وامتداداً طبعياً للفكر الاستشراقي الذي يسلب الإنسان الشرقي حقه في اختيار مساره ويستهن مصائب وكوارث الوجود الاستعماري.

طبعا لكل هذه الانتقادات مرجعيات فلسفية ونظرية يطول الحديث عنها ويلزم رؤيتها كقرائن تكميلية وإغنائية بدلا من محاولات ترمي إلى تقزيم كتاب "الاستشراق" والنيل من مؤلفه. قيمة "الاستشراق" لا تكمن فقط في الأفكار التي يطرحها الكتاب ولكن أيضا وبالارتباط مع ذلك في الجدل الخلاق الذي أسهم في التعاطي الواسع والعميق مع ما جاء به المؤلف. وبغض النظر عن هذه الملاحظات الشكلية، لا بد أن نتوقف قليلا للتأمل في بعض ما جاء في هذه الكتابات. إذ أن النموذج الفكري والنقدي الذي يقدمه سعيد تعرض لكثير من التشويه والتعظيم عن قصد أحيانا وعن تسرع أو عدم الفهم الدقيق في معظم الأحيان. في هذا السياق يجب التذكير أن النصوص التي تعامل معها سعيد في مؤلف "الاستشراق" يميزها الاختلاف والتنوع اللغوي والفكري والشكل الجمالي والمحبة التاريخية وبالتالي من ينتقد منهج سعيد على أنه يفرض نوعا من التراص والوحدة يتجاهل أن في الاختيار المبدئي نفسه لهذه النصوص تكمن رؤية دقيقة وواعية بهذه الاختلافات. ولكن الإشكال لا يرتبط بوجود وعي بهذا الاختلاف لدى سعيد أو انتقائه لديه. بل يتمثل في أن اهتمامه المركزي ينحصر في القوالب المشتركة التي توحد هذه النصوص رغم الاختلافات الكثيرة التي تطبعها. ما يهم سعيد هو تلك النماذج المتكررة من الأقوال والصور حول الشرق والتي يعكس استمرارها وتفاعلها نوعا من السلطة الفكرية لها امتداد في الفضاءات المجتمعية والمؤسسات السياسية. إن من يتصفح "الاستشراق" تطالعه أسماء عديدة لرحالة وروائيين ومستشرقين ولغويين وشعراء وسياسيين شكل لهم الشرق حلما أو تجربة أو مهنة. ورغم الفوارق الشاسعة التي تميز روائيا مثل فلوبيير (Gustave Flaubert) عن شاعر مثل جوته (J W Goethe) أو رحالة مثل بورتون (Richard Burton) عن سياسي مثل بلفور (James Balfour)، فإن الأكثر إفادة بالنسبة لسعيد هو ذلك التشابك والارتباط الذي

يلعبه الشرق في مخيلة وتجربة هؤلاء الأشخاص والذي بقدر ما يفسر رؤية كل واحد منهم للشرق والشرقيين يعكس أيضا واجهة من الواجهات لذلك الخطاب المتكون من عدد لا يحصى من الأقوال والتمثيلات والانطباعات والأحكام.

وهذا يقودنا إلى ذلك الاتهام الموجه لسعيد حول انسداد الأفق الذي يمثله تصويره للاستشراق كخطاب غربي كاسح لا يسمح بالتعدد والاختلاف ولا بالمقاومة. في رأيي هذا الانتقاد يمثل نوعا من ذلك التفكير البهلواني الذي يتلاعب بالألفاظ والتعابير أكثر مما يغوص إلى عمق المعنى وهو بهذا يسهل الرد عليه. إذ أن مؤلف سعيد يشير بوضوح إلى أن الشرق كفضاء ثقافي وجغرافي وروحاني كان له تأثير قوي ومتنوع في تفكير وتجربة الكثيرين ممن كتبوا عنه، وهذا يعكس شكلا من الرد الطبيعي أو التجاوب وحتى المقاومة. وما يجب الانتباه إليه هو أن سعيد حاول التوفيق بين المنهج الأنسي الذي يقوم على قراءة النصوص الاستشراقية باعتبارها تمثل أفكار وأحاسيس مؤلفيها وتعكس روح العصر والأشكال الثقافية السائدة فيه وبين المنهج الفوكوي الذي يتجاوز مفهومي النص والمؤلف ويتحدث عن خطاب أو خطابات تتلاقى فيها الأفكار وتتمازج بفعل الصيرورة التاريخية وبفعل قيام وتشكل إرادة سلطوية معينة نتيجة تصادم ظروف سياسية معينة. وبالتالي فإن مفاهيم من مثل "الشرق هو نقيض الغرب" لا يمكن حصرها وتقييدها بنص أو كاتب معين. بل يلزم رؤيتها كمقولة تشكلت شيئا فشيئا عبر التاريخ والجغرافيا والثقافة والسياسة. كل من تعامل معها من الكتاب والشعراء والسياسيين أو من العامة أسهم في إعطائها مزيدا من المعنى ومن المحولة السياسية والعاطفية. وهكذا فإن تفسير هذه المقولة على أساس أنه من إنتاج شخص معين فيه الكثير من التبسيط والإسقاط. وبالنسبة لسعيد فإن دراسة ظاهرة الاستشراق كخطاب على نهج فوكو لا يلغي مع ذلك الدور الذي يلعبه المؤلف كشخص ولا يتناقض معه. فالكاتب ليس قوة مسيرة مثل قشة في نهر جار، بل له إرادة وفهم خاص وتأثير على مجريات الأشياء قد يصل إلى درجة تحدث الإساءة وتفرز أشكالا من الظلم تجاه الآخرين، مما يستوجب المساءلة.

والأهم من هذا هو أن ما وجه كتابات الأوروبيين حول الشرق عموما كان أولا الرغبة في المعرفة والاستقصاء ليس بالضرورة لفهم الآخر على أساس المساواة ولكن من أجل فهم أشمل للكون والإنسان والحضارة البشرية وأيضا من أجل إعادة تركيب وتصنيف الثقافات

والأجناس واللغات والديانات وفق منظور أوروبي ينطلق من التعاليم المسيحية وينهل من الأفكار التنويرية والنظريات 'العلمية' لكارليل وستيوارت ميل وداروين وماركس وأمثالهم. وبالإضافة إلى الرغبة في المعرفة فإن إرادة السلطة والتحكم شكلت عنصرا قويا في صياغة هذه المعرفة وتطويعها خصوصا خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين مما أفرز أشكالا من السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية.

كل هذا قد يبدو أمرا مسلما به ولا يحتاج إلى كثير من النقاش. لكن ما يلح عليه سعيد هو فضح ذلك الادعاء القائم على علمية وخيرية المعرفة الغربية حول الشرق، وكشف الخبايا المحيطة بها ومنها التكالب الحاصل بين مؤسسات علمية وأخرى إدارية أو عسكرية من أجل اختراق تلك الخصوصية الثقافية والدينية عند ما يسمى بالشرقيين. ويمثل هذا المنحى "التأمري" للمعرفة الاستشراقية كتابات وليام لاين (William Lane)، ريتشارد بورتز، وت إ لورنس (T E Lawrence). والجانب الآخر الذي يسعى سعيد إلى توضيحه للقارئ هو أن ما يعتقد أنه كتابات إبداعية خالصة (مثلا جوته، فلوير وشاتوبريون) تغطي عليها الروح الشعاعية والبعد الجمالي أكثر منها المضامين السياسية والمحقق العلمية هي نفسها جزء لا يتجزأ من ذلك الخطاب الاستشراقي المتعدد الأوجه والأشكال يوحداه الاهتمام بالشرق كفضاء وثقافة. والمخالصة التي يمكن للقارئ استنتاجها من كل هذا التوصيف لمنهج سعيد هي أنه بدل النظر إلى ظاهرة الاستشراق كقدر محتوم للشرقيين كما اعتقد بعض النقاد فإن الكتاب يقدم تصورا انتقاديا معارضا ومفككا لسلطة الاستشراق. والمفارقة هي أن هذا التصور الانتقادي هو ما خول العديد من النقاد ومنهم معارضو سعيد أن يستفيدوا من روح المجابهة والتصدي التي حبلت بها ثنايا المؤلف.

في مقابل هذه الاختيارات المنهجية عند سعيد المرتكزة على مفهوم الخطاب وعلى ترابط المعرفة الاستشراقية المتعددة الأصول والأبعاد بظواهر مثل الإمبريالية والاستعمار هناك منهج يتبناه منتقدو سعيد وينص على التعامل مع النصوص كحالات فريدة واستثنائية حيث الخصوصية الفكرية واللغوية والجمالية تغطي على الانتماءات الثقافية والتاريخية وعلى المعاني السياسية. والأشد من هذا فإن النص يصبح نفسه مجالا للإسقاطات والتحليل المشطي على أساس الازدواجية والتناقض والالتباس كما هو الحال اليوم في مجموعة من الكتابات النقدية في تيار ما بعد الاستعمار. وبدلا من مواجهة تلك القوة المتغترسة داخل النص

الكولونيالي والمتمثلة في الأوصاف السلبية للآخر والمتمركزة حول الذات لأوروبية، يلجأ نقاد "ما بعد الاستعمار" إلى استلهاهم طرائق التحليل التفكيكي (دريدا) والنفسى (لاكان Jack Lacan) الغائصة في النصية والمذوبة لكل بعد سياسي وثقافي عن النص لدرجة أن هذا المنهج في التحليل يصبح مكرورا وخلاصاته محددة مسبقا إذ أن السلطة والمقاومة هما تعابير مجازية لا أكثر.

بعد عقد ونصف من صدور مؤلف "الاستشراق"، نشر سعيد كتابا آخر لا يقل أهمية وهو "الثقافة والإمبريالية" الذي تناول فيه علاقة الأدب الأوروبي وبخاصة البريطاني والفرنسي مع ظاهرة الإمبريالية وتأثير هذه العلاقة في تحديد المسارات والمصائر السياسية والثقافية للشعوب المستعمرة وللقوى الاستعمارية نفسها⁽¹⁴⁾. وأهم ما يبدأ به الكتاب هو الإلحاح بوضوح على أن روح المقاومة لم تغب أبدا ولم تخب قط لدى الشعوب المستعمرة وأن المقاومة هي من دحر المشاريع الاستعمارية الأوروبية في النهاية⁽¹⁵⁾. و"الثقافة والإمبريالية" على خلاف "الاستشراق" لم يأت دفعة واحدة بل كان نتيجة سنوات عديدة من التعاطي مع نماذج من الأدباء والمفكرين والنقاد ومع نصوص قديمة وأخرى حديثة تنتمي إلى بلدان ما يسمى بالعالم الثالث. كما أن المؤلف أثار جملة من الإشكاليات يرتبط بعضها بالاستشراق ومنها مسألة التمثيل والتشويه في الكتابات الأدبية الأوروبية ومسألة المقاومة سواء ما تعلق بالتعميم والتبسيط المخل أو بأشكال القمع والإقصاء والتهميش الذي يطال الآخر في الخطاب الثقافي والفكري الأوروبي.

والى جانب هذه المعطيات فإن "الثقافة والإمبريالية" يعكس تطورا لافتا في تعامل سعيد مع القضايا التي يطرحها الكتاب قياسا مع الاستشراق. لا بد أن نشير أن إنتاج سعيد خلال هذه السنوات عرف تنوعا مهما وتحولا تدريجيا نحو القضايا السياسية وكيفية تعامل الإعلام الغربي والأمريكي خاصة معها. ومن هذه الكتابات مؤلفه "المسألة الفلسطينية" وهو كتاب يروم إثارة انتباه الأمريكيين إلى وجود شعب تحت نير الاحتلال الإسرائيلي وهو

14. Edward Said, *Culture and Imperialism* (New York: Vintage Books, 1994).

15. *Culture and Imperialism*, XII.

الشعب الفلسطيني الذي تم طمس تاريخه وتشويه كفاحه من طرف مجموعة من المؤرخين والإعلاميين الغربيين المتعاطفين مع الإيديولوجية الصهيونية. و"المسألة الفلسطينية" يمثل نموذجاً رائعاً للمقاومة الفكرية للخطاب الاستبدادي الصهيوني. فمن خلال فصوله الأربعة يرسم الكتاب صورة جلية للتاريخ الفلسطيني الحديث وصراعه المرير مع الحركة الصهيونية القائمة على تهجير الفلسطينيين وسلب أراضيهم وحقوقهم المشروعة من أجل توطين مئات الآلاف من المهاجرين اليهود. كما يقدم الكتاب عرضاً مفصلاً لتطور الكفاح الفلسطيني وارتباطه بالأحداث السياسية بدأ من حرب 1948 ومروراً بحروب 1967 و1973 وبروز منظمة التحرير الفلسطينية وصولاً إلى اتفاقية كامب دايفيد. وسعيد بهذا الكتاب يعكس إرادة شخصية لمجابهة الضغوط ومحاولات التهميش التي تصاعدت إزاءه فور صدور "الاستشراق". وبدلاً من الاكتفاء بالدفاع عن قناعته فإن سعيد اختار بجرأته المعهودة فتح النقاش حول كل ما هو خاضع للتعميم والتشويه. وقد كرس هذا النهج بدراسته للطرق التي تعامل بها الإعلام الغربي والأمريكي على الخصوص مع الثورة الإيرانية والتي تحولت إلى محاكمات فكرية للدين الإسلامي تفتقد إلى الفهم والدراية وإلى روح الانفتاح والتسامح. وبالأمثلة المتعددة يوضح سعيد في مؤلف "تغطية الإسلام" مدى تحيز المنابر والأصوات الإعلامية الأمريكية وتسرعها في إسقاط الأحكام المجازة خاصة أن تأثيرها لا يقتصر على المجتمع الأمريكي بل يتعداه إلى مناطق كثيرة من العالم ومنها المنطقة العربية⁽¹⁶⁾.

بعد هذين المؤلفين الهامين نشر سعيد كتاب "العالم النص والناقد" وهو يضم مقالات متنوعة سبق أن نشرها في مجلات متخصصة⁽¹⁷⁾. ومن هذه المقالات ما يرتبط بدراسة شخصيات أدبية مثل مقالاته عن جونثان سويفت (Jonathan Swift) وجوزيف كونراد ورايمون شواب (Raymond Schwab)، ومنها ما يرتبط بمفاهيم ومصطلحات حول التكرار والأصالة

16. راجع إدوارد سعيد: "تغطية الإسلام". ترجمة سميرة نعيم خوري. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية. 1983. وهو ترجمة لكتاب:

Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World (New York: Pantheon; London: Routledge & Kegan Paul, 1981).

17. راجع: *The World, the Text, and the Critic* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983).

والعالم والنص والناقد. ومنها أخيراً ما يتعلق بتصوره للمسارات التي أخذها النقد في الجامعات الأمريكية خاصة مع تزايد تغلغل النقد الفرنسي وتعاطي الأكاديميين الأمريكيين معه. ورغم أنه من الصعب تلخيص أفكار سعيد في فقرة أو فقرتين لما فيهما من العمق والتعقيد، إلا أنه يمكن التركيز على مفهومين:

مفهوم الدنيوية (worldliness) وهو يقوم على التعامل مع النص باعتباره جزءاً من هذا العالم ينشأ فيه ويتأثر به ويؤثر فيه. وفصل النص أياً كان جنسه أو مدلوله عن هذا العالم هو انتقاص وتشويه للدلالات والمعاني التي من أجل تبليغها قام النص. وفي مقابل هذا فإن فهم النص داخل المحيط الذي نشأ فيه سواء تعلق الأمر بمؤلف النص وظروفه الشخصية أو بالإطار التاريخي والسياسي والثقافي العام يمكن النص من مباشرة دور فاعل وإيجابي في هذا المحيط. وينسجم هذا التصور للنص مع رؤية سعيد لوظيفة الأدب والنقد في المجتمع ليس كمارسات جمالية بروجوازية أو نخبوية، بل كأشكال من الالتزام الفكري تجاه القضايا الإنسانية مثل مجابهة الظلم والقمع وفضح السلطة وتقديس حرية وكرامة الإنسان. هذا البعد النضالي للأدب يتناقض مع مفاهيم ما بعد البنيوية لسلطة النص والمؤلف كما طرحها بأشكال مختلفة رولان بارت، ميشل فوكو وجاك دريدا وحتى بعض ما يسمى بالبنويين الماركسيين أمثال لويس ألتوسير. وهم في النهاية يتفقون على أن النص والمؤلف هما فقط حلقات صغيرة من حركات أو مسلسلات أو بنيات كبيرة مثل المجتمع أو التاريخ أو الثقافة أو التأويل أو الإيديولوجية.

الوعي النقدي (Critical consciousness)، بالارتباط مع مفهوم الدنيوية وكإستراتيجية لتحقيق ذلك البعد الإنساني الملتزم، يلح سعيد على إعمال وعي نقدي دائم للتمييز بين الظواهر والمحالات ولمواجهة التعميم والإسقاط والإحساس الفردي والجماعي بالتفوق والتميز سواء تعلق بالعرق أو الدين أو الثقافة. ويقوم الوعي النقدي على أساس المعرفة الدقيقة والاضطلاع الواسع وعلى روح التآخي والتواضع والنظر إلى الاختلافات الثقافية بشكل أفقي وليس عمودي ترابتي. وفي هذه الدعوة إدانة مبطنة للكتابات البريطانية والفرنسية خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين والتي سادت فيها فكرة التفوق العرقي والفكري والديني والثقافي. لكن مفهوم الوعي النقدي لا يرتبط فقط بقراءة النصوص الكلاسيكية الأوروبية بل له صلة وثيقة بما يعتمل من جدال حول أحدث التيارات في النظرية الأدبية. فعلى خلاف

زملائه المنظرين وأتباعهم من النقاد يتجنب سعيد الانتماء إلى أي من النظريات الأدبية فيما يعرف بما بعد البنيوية، ويفضل أن يوفر لنفسه مساحة من الحرية في التعامل مع النصوص والظواهر دون أي تقييد. ورغم أن اختيارات سعيد المنهجية تشكل في نهاية الأمر شكلا من النظرية، إلا أن مقاومته لأنساق وقوالب معينة من التفكير تشير إلى اعتقاده بأن النظريات والتقاليد والتعاليم تكبل الفكر وتفرض عليه نوعا من النظام القسري والعمى والالتباس.

هذان المفهومان يحتلان موقعا مركزيا في مؤلف "العالم النص والناقد". فمن خلال تحاليله المليئة بالتفاصيل وبالاحالات والمقتطفات يبين سعيد مدى ترابط الظواهر الأدبية والثقافية وضرورة قراءة النصوص بحس نقدي ينفذ إلى المحيط وإلى أرشيفات المؤلفين أنفسهم باعتبار أن كتابات أي مؤلف لها درجة من الوحدة ومن الاستمرارية الفكرية كما هو الحال عند سويفت وكونراد. ومن جهة أخرى يرى سعيد أنه بالإضافة إلى قيمة الخلق والإبداع المرتبط بالمفكر والأديب والناقد وبالإضافة إلى تأثير التقاليد والمفاهيم الموروثة هناك دور فاعل للمحيط يتمثل في إغناء وتطوير بل و تحويل هذه المفاهيم وهو ما يصطلح عليه بالترابط أو التشابك. ومن الأمثلة التي يسوقها لشرح هذا الدور الفاعل للمحيط انتقال وتفاعل الأفكار التي قدمها جورج لوكاش في كتابه "التاريخ والوعي الطبقي" والتي أثرت في تفكير لوسيان غولدمان وأفرزت تصورات مختلفة نسبيا عن تلك التي جاء بها لوكاش. إذ أن مفهوم الوعي الطبقي أخذ صبغة أخرى ربما أقل عمقا وأقرب إلى تلك الرؤية الشاملة للعالم مما يحذف عنها البعد الطبقي. ومن بعد غولدمان يستعرض سعيد كيفية تأثر الناقد البريطاني رايموند وليامس (Raymond Williams) بأفكار لوكاش وذلك من خلال ما قدمه غولدمان. وهذا انتقال مضاعف عن الفكرة الأصلية. والمقصود هنا من هذا التعقب لمسار فكرة أو جملة من الأفكار التأكيد على أن للمحيط تأثير في تشكل وتطور الأفكار والمفاهيم كما أن له دور في تقزيمها أو إضعافها⁽¹⁸⁾.

والمثال الآخر الذي يمكن أن نستعرضه بعجالة هو التحول الذي طرأ على مفهوم الثقافة و الأدب في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، حيث أن الفكرة السائدة والتي كان

18. راجع مقالة سعيد "Travelling theory" in *The World, the Text, and the Critic*, pp. 226-47.

لها انعكاس مباشر على الأشكال الجمالية والتعبيرية خلال العقود الموالية هو أن للأدب والثقافة دور السمو بالإنسان وبالذوق وأن إدراكهما وتقدير قيمتهما لا يتأتى إلا للنخبة ذات الأصول العريقة والتعليم الراقي. وبالتالي فإن من الواجب تعليم هذه القيم والتعاليم لعموم الشباب البريطاني خاصة وأن الكثيرين منهم يؤدون الخدمة في المستعمرات ليكون ذلك مناعة لهم وتحصينا من أي تأثير سلبي للثقافات الأخرى المتقدمة إلى هذه القيم. وأهم من دافع عن هذه الفكرة ماثيو أرنولد (Mathew Arnold)⁽¹⁹⁾ وقبله توماس ماكولاي (T B Macaulay)⁽²⁰⁾.

وبالرجوع إلى مؤلف "الثقافة والإمبريالية" نجد سعيد قد نقل نقلة كبيرة في طبيعة الانشغالات الفكرية والتي طوال عقد الثمانينيات تحولت من النظرية الأدبية إلى العمل السياسي وإلى دراسة الثقافات والتجارب الأدبية في بلدان العالم الثالث، فكان اهتمامه المتجدد بروايتين مثل كونراد وأوستن (Jane Austen) وكامو (Albert Camus). لكن هذه المرة بارتباطهم مع ظاهرة الاستعمار وتعاطيهم مع الآخر وتصورهم لعلاقة المركز مع المستعمرات. ولا يقتصر الأمر على تناول هؤلاء الروائيين، بل يمتد اهتمام سعيد إلى الكشف عن مدى أهمية وتأثير مفهوم الإمبراطورية في كتابات جيل من الروائيين خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين. ويركز سعيد على الجنس الروائي لكونه الأكثر تعبيرا وتداخلا مع ظاهرة الاستعمار كما سلفت الإشارة إلى ذلك. وبدلا من الحديث عن الإمبريالية والاستعمار من وجهة نظر تاريخية أو سياسية بحتة، اختار سعيد أن يعالج هاتين الظاهرتين من خلال الإنتاج الروائي لأكبر قوتين استعماريتين في العصر الحديث، خاصة

19. راجع:

Arnold, Matthew. "The Function of Criticism at the Present Time." In *The Norton Anthology of English Literature* (M. H. Abrams and Stephen Greenblatt, Eds.). 7th ed. (New York: Norton, 2000), pp. 1514-28.

20. راجع:

Thomas Babington Macaulay, "Minute of 2 February 1835 on Indian Education," *Macaulay, Prose and Poetry*, selected by G. M. Young (Cambridge MA: Harvard University Press, 1957), pp. 721-729.

وأن هاتين القوتين هما أيضا موطن ومنطلق العديد من الأفكار والخطابات حول الأعراق البشرية والرسالة الحضارية لأوروبا وهمجية وبربرية الشعوب الأخرى. ومن بين الأشياء التي يخلص إليها سعيد هو أن الإمبريالية والجنس الروائي ارتبطا عضويا ببعضهما البعض، إذ أن الوجود المادي البريطاني والسلطة المعنوية التي تمتع بها كل فرد بريطاني حيال السكان الأصليين سمحت باستلهم تلك الحكايات حول الفضاءات البعيدة في الهند وفي أنحاء من إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وفي المقابل كان لهذه الحكايات والقصص، التي رواها كتاب نشأوا في المستعمرات أو أقاموا فيها أو حتى مروا عبرها، تأثير كبير في صنع وتكريس تلك السلطة الأسطورية حول عظمة بريطانيا أو فرنسا وعن الحق الطبيعي لهاتين القوتين في السيطرة على هذه لشعوب وعلى استغلال أراضيها ومواردها. هذه التصورات المفرطة في تعظيم الذات استمدت مشروعيتها من كتابات مفكرين أمثال ماكس مولر (Max Muller) وإرنست رنان (Ernest Renan) وداروين (Charles Darwin) وكارلايل (Thomas Carlyle) وأمثالهم مثلما استمد الوجود البريطاني والفرنسي في الشرق سلطته من كتابات العديد من المستشرقين.

لكن إذا كانت هذه الصورة القائمة قد طبعت علاقة أوروبا مع باقي العالم، فإنه بداية من النصف الثاني من القرن العشرين كما يرى سعيد بدأت أصوات من المستعمرات تعلقو لتبشر بعهد جديد من المقاومة والمعارضة لهذا الخطاب الاستعماري المهيمن. وهكذا يقدم سعيد في الفصل الثالث من مؤلفه نماذج مثل فرانز فانون (Franz Fanon) وإيمي سيزار (Aimé Césaire) ودي بوا (Du Bois) الذين بدأوا مساءلة تلك السلطة المعرفية التاريخية لأوروبا حيال المستعمرات.

وبالإضافة إلى هذه الأصوات النقدية يستعرض سعيد تجارب كثيرة من الكتابات الحديثة التي حاولت مقارنة ظاهرة الاستعمار والإمبريالية من وجهة مختلفة عن نظيراتها الأوروبية، وهي كتابات تتمتع بحس نقدي ومعرفة دقيقة بالمواضيع قيد البحث كان لها أثر وصدى في الجامعات الأوروبية والأمريكية نفسها ومنها كتابات جيمس (CLR James)، ألبر ميمي (Albert Memi)، العطاس (S H Alatas) واراناجيت جوها (Ranajit Guha). ويحرص سعيد على التأكيد بأن التجارب السياسية لدول العالم الثالث في فترة ما بعد الاستعمار لم تكن تجارب مشرفة وأن الخطابات الإيديولوجية الثورية والتقدمية والقومية

رغم صراعها مع الإمبريالية لم تنتج أوضاعاً ثقافية واقتصادية واجتماعية أفضل منها في فترة الاستعمار الأوروبي. ومن جهة أخرى لا يلغي سعيد وجود أصوات نقدية حتى من داخل أوروبا الاستعمارية مثل جين بول سارتر (JP Sartre) وبازل دايفدسون (Basil Davidson)، وعلى خلاف كتاب "الاستشراق" ينتهي بالمطالبة باستعمال قراءة معاكسة ومصاحبة (contrapuntal reading) تجمع بين الطرفين ونقيضه بين نصوص وأنساق من الأفكار الأوروبية وبين ما يمكن أن يقابلها من النصوص والأفكار في بلدان العالم الثالث. ومثال ذلك قراءته لرواية كونراد "قلب الظلام" ورواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال"، أو مسرحية إيمي سيزار "عاصفة" ومسرحية شكسبير الشهيرة "العاصفة". هذه القراءة المعاكسة بتنوع أبعادها وتعدد معانيها يعكس نوعاً من الإقرار بأن عهد التفسير الواحد والنظرية الثابتة والخطاب الجامع قد ولى وأن المركز لم يعد يملك الهيمنة الفكرية كما في السابق على الأقل من الناحية المعنوية، وأن للأطراف أيضاً خطابات وتصورات حول طبيعة هذه العلاقة الاستعمارية فيها كثير من العمق والمعرفة الدقيقة بالذات والآخر.

هذا الاستعراض السريع لبعض المؤلفات التي شكلت علامات فارقة في مسار سعيد الفكري والأكاديمي الغني بالإنتاجات لا يكاد يوفي لإدوارد سعيد حقه. فهناك أعمال أخرى يضيق المجال للحديث عنها حول الموسيقى وصور المثقف وتجربته الشخصية قبل الرحيل إلى الولايات المتحدة وحول تطورات القضية الفلسطينية بعد اتفاقات أوسلو. وكلها تشترك في خاصية الحس الملتمزم والنقدي والنضالي الذي يتمتع به سعيد. في سنوات التسعينات بعد أن اكتشف إصابته بمرض اللوكيميا لم يختار سعيد الانزواء بل ضاعف نشاطه واهتمامه بالقضايا التي يؤمن بها، فظل مدافعاً عن الحق الفلسطيني في تقرير مصيره يستهجن الانكسارات والتراجعات التي ألت بالقضية الفلسطينية بسبب ضعف الالتزام وقلة الدراية والاستئثار بالقرار من طرف المفاوضين الفلسطينيين. كما أن سعيد كرس سنواته الأخيرة للدفاع عن القضية العراقية وعن لأخلاقية الحصار والحرب التي شنتها الولايات المتحدة ضد العراق.

بعد ثلاث سنوات على وفاته لا يزال سعيد يحظى باحترام وتقدير في الأوساط الأكاديمية الغربية كأحد أهم المفكرين في القرن العشرين ممن كان لإنتاجهم الفكري ولتجربتهم الحياتية تأثير إيجابي قوي في توجيه جيل من الدارسين في الغرب وفي عدد من بلدان العالم الثالث.

المراجع

- Ahmad, Aijaz. *In Theory: Classes, Nations, Literatures*. London: Verso, 1992.
- Asad, Talal, ed. *Anthropology and the Colonial Encounter*. London: Ithaca, 1973.
- Ashcroft, William D., Gareth Griffith, and Helen Tiffin, eds. *The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures*. London: Routledge, 1989.
- _____. *The Post-Colonial Studies Reader*. London: Routledge, 1995
- Behdad, Ali. *Belated Travelers: Orientalism in the Age of Colonial Dissolution*. Durham, NC: Duke UP, 1994.
- Bhabha, Homi K. *Locations of Culture: Discussing Post-Colonial Culture*. London: Routledge, 1996.
- Barthes, Roland. *Le Degré zéro de l'écriture*. Paris: Seuil, 1972.
- , *The Pleasure of the Text Trans.* Richard Miller. New York: Hill & Wang, 1975.
- Binder, Leonard. *Islamic Liberalism: A Critique of Development Ideologies*. Chicago: University of Chicago Press, 1998.
- Clifford, James, ed. *Writing Culture: the Poetics and Politics of Ethnography*. Berkeley, CA: U of California P, 1986.
- Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth*. New York: Grove P, 1961.
- Foucault, Michel. *The Archaeology of Knowledge and the Discourse on Language trans.* A M Sheridan Smith. New York: Pantheon Books, 1972.
- Krammer, Martin. *Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America* (The Washington Institute for Near East Policy, 2001);
- Lentricchia, Frank. *After the New Criticism*. London, Mehuen, 1980.
- Lowe, Lisa. *Critical Terrains: French and British Orientalisms*. Ithaca, NY: Cornell UP, 1991
- Macaulay, Thomas Babington. "Minute of 2 February 1835 on Indian Education." *Macaulay, Prose and Poetry*, select. G. M. Young. Cambridge MA: Harvard University Press, 1957: 721-729.
- Matthew, Arnold. "The Function of Criticism at the Present Time." (2000). In *The Norton Anthology of English Literature* (M. H. Abrams and Stephen Greenblatt, Eds.). 7th ed. New York: Norton. 1514-28.
- Memmi, Albert. *The Colonizer and the Colonized*. New York: Orion Books, 1965.
- Mills, Sarah. *Discourse of Difference*. London: Routledge, 1992.
- Said, Edward. *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography*. Cambridge, Mass.: Harvard UP, 1966.

- . *Beginnings: Intention and Method*. New York: Basic Books, 1975.
- . *Orientalism* (1978). New York : Penguin Books, 1995.
- . *The Question of Palestine*. New York: Times Books, 1979.
- . *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*. New York: Pantheon; London: Routledge & Kegan Paul, 1981.
- . *The World, the Text, and the Critic*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983.
- . *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*. Eds. Edward Said and Christopher Hitchens. London: Verso, 1988.
- . *Culture and Imperialism*. New York: Vintage Books, 1994.
- . *Out of Place: A Memoir*. London: Granata Books, 1999.
- Young, Robert. *White Mythologies: Writing History and the West*. London: Routledge, 1990.
- . *Colonial Desire: Hybridity in Theory, Culture and Race*. London: Routledge, 1995.
- Edward Said, *Orientalism* (1978) (New York : Penguin Books, 1995), p.340.